رحلات السندباد السبع

بقلم عبد الرحمن فهمي

وقفت بكم يا سادة يا كرام وانا اجري في مدينة الدناسير ،اطلب النجاة بنفسي من لا شيء ، فلم يكن الدناسير يطاردونني ، اذ كانوا نياما يغطون ، وحتى لو كانوا ايقاظا وعلموا بفراري ، لما فكروا — وهم الوادعون المسبحون — في ان يطاردونني ، بل لا استبعد — وقصة الجو البارد الحار لا تزال حية في عقلي — ان يفروا معي من مدينتهم .

لم يكن خوف الدناسير اذن سبب فراري ، انما كنت افر من فكرة انتصبت في عقلي كمارد صاخب اخذ علي مسالك التعقل .. هؤلاء شعب يأكل بعضه البعض ، يتغذى على نفسه .. الاب يأكل ابنه ويولم عليه للاخرين ، والفرد منهم يقدم عنقه راضيا — او هذا ما فهمته — لتلوى وتفسخ اعضاؤه ليأكلها الاخرون . لم ار في تقديم الملك ابنه لي لونا من الكرم ، ولا في تقديم الكهل نفسه لي لونا من الايثار ، لا يا سادة يا كرام ، انهم بغض النظر عن الكرم والايثار — يأكلون بعضهم ... تصوروا .. يأكلون بعضهم ..!! وليس ثمة ما يمنع ان افطر ذات صباح بواحد انفقت واياه سهرة الامس نمزح ونمرح ، او ان اتعشى ذات مساء بواحد صبحته خلال النهار . نعم يا سادة يا كرام .. كنت افر من تصور وليمة تولم لي ثلاث مرات في اليوم على لحوم من عشت معهم وعاشرتهم واحببتهم وحادثتهم وحادثوني وضحكوا او عبسوا لي وضحكت او عبست لهم . بل لماذا اخجل من ذكر اشد ما اثار فزعي ؟ لقد خشيت يا سادة يا كرام يوما — قرب او بعد — اجدني ادفع فيه دفعا الى تقديم عنقي راضيا لتلوى واعضائي لتفسخ ، فليس ثمة مفر من هذا المصير ما دمت سوف اعيش مثلما يعيشون ... بلا عمل ، ولا حب ، ولا خوف ، ولا رجاء ، لا مفر من هذا المصير ما دمت لن اصحو كل صباح وانا آمل في شيء احب ان اناله ، ولن انام كل ليلة وانا آسف على شيء عجزت عن ان اناله . ان بضعة اسابيع في مثل هذه الحياة كفيلة بان تنسيني من اكون ، وتجعل مني « ما » مثلهم لا « من » مثلما كنت في بغداد .
نعم يا سادة يا كرام ، كان لا بد اذن ان افر بذاتي — انا السندباد — من هذه الجنة ، حتى لو انتهى بي فراري الى جب هارون وجنوده او الى اقبية المستنطقين في بغداد .

وهكذا انطلقت اجري في الطرقات نحو فوهة الجب الذي منه خرجت ، ناسيا في زحمة الخوف حقيقة كان ينبغي الا اغفل عنها ، وهي ان طريقي الى الجب بعيد بعيد ، قطعت في مجيئي الى المدينة اقله لاهثا واكثره محمولا بين اصابع عملاق خطوته فرسخ . ولو قد اعانتني ساقاي على ان اجري شهرا لما قطعت من الطريق ربعه او ثلثه . وقد غابت عني هذه الحقيقة حتى نبهني اليها الفجر الفضاح ، فقد رأيت على اشعته الاولى انني لا ازال اعدو تحت جدران قصر الملك او بيته ان شئتم دقة في التعبير — دون ان اتجاوزها . ليلة كاملة انفقتها لاهثا ولم اعد بيتا ، فكم يلزمني من الليالي اذن لاتجاوز شارعا الى شارع ؟

نبهني الفجر الفضاح الى هذه الحقيقة الرهيبة فوقفت فزعا .. أقضي علي ان انفق عمري كله لاخرج من مدينة الدناسير ؟!!

وتلفت حولي يائسا ، فرأيت الدناسير بدأوا يغادرون بيوتهم .. عمالقة ، سيقانهم مآذن ، ورءوسهم قباب ، وعيونهم كهوف . فخطر لي خاطر تعلق به املي .. لم لا استعين بالدناسير انفسهم ليخرجوني بخطواتهم الفرسخية من مدينتهم ؟ ان الامر لن يكلفني اكثر من ان اتعلق بثياب واحد منهم يكون في طريقه الى خارج المدينة . وكان دون تحقيق هذا الامر عقبات ، اولاها ان اتمكن من الوصول الى اطراف ثوب احدهم ، ولم يكن هذا بالعقبة الكأداء ، فبجواري جبل عال — هو بالنسبة اليهم حجر ملقى .. مجرد حجر ملقى في الطريق — استطيع ان اتسلقه فاصل الى اطراف ثياب احدهم . لم تكن هذه بالعقبة الكأداء اذن ، فشرعت في ارتقاء الجبل — او الحجر — الذي كان يتوهج كلما مسته قدماي فازاحت عنه الصدأ — فهو من الذهب الخالص كما ذكرت — حتى وصلت قمته وواجهت العقبة الثانية التي لا املك لها تذليلا .. كيف انتقي عملاقا يكون في طريقه الى خارج المدينة لا الى داخلها ؟ ولم اكن استطيع ان اسأله — لا ادري لماذا فانا لا اخافهم بقدر ما اخاف نفسي — عن غايته ، فتركت امر هذه العقبة للقدر وسلمت امري لله ، وقلت في نفسي « يا سندباد ، لو اراد الله لك ان تنجو من مدينة الدناسير لهيأ لك واحدا في طريقه الى خارجها ، والا فتلك ارادة الله . »

وهكذا وقفت فوق الجبل — او الحجر — حتى مر واحد منهم بالقرب مني ، وطالت ثيابه حتى مستها يداي فتعلقت بها ثم جلست في طية من طياتها مستسلما . وكان التعب قد نال من قواي ، وهد السهر ليلتين متصلتين ما صلب من ارادتي ، فاغمضت عيني ونمت عميقا .

واستيقظت يا سادة يا كرام اثر احساسي بلطمة عنيفة ، فلما فتحت عيني وجدت العملاق يجمع اطراف ثوبه تهيؤا للجلوس ، وكانت هذه اللطمة من اثر ارتطام طرف ثوبه الذي انام فيه بالارض . فنظرت تحتي محاولا ان اتجنب الارتطام مرة اخرى حتى لا تشج رأسي او ترض عظامي وانا مقبل على مصير مجهول ، فرأيت تحتي رمالا جدباء تمتد الى ما لا نهاية دون ان يبدو فيها اثر لنبت او ماء ، فقلت في نفسي « وقعت في شر اعمالك يا سندباد ، فقد جاء بك العملاق الى هذه الصحراء الجرداء ، فاما نزلت فنفقت فيها ظمأ وجوعا ، واما عدت في اذياله الى مدينته التي منها فررت . ولست اراك عائدا لمصير تعرفه رهيبا فرارا من مصير تجنه لك هذه الصحراء ولا تعرف عنه شيئا ، فامامك على الاقل امل في المجهول . »

وكان العملاق قد جلس يا سادة يا كرام ، فانزلقت من طية ثوبه الى الرمال اطرقها نحو مصيري المجهول . ولا اعرف ان كان العملاق رآني وانا ادب في الصحراء او لم يرني ، ولكنه على اية حال لم يحاول ان يمسك بي او يعرقل طريقي ، بل لم يحاول حتى ان يتبين ماذا اكون .

وهكذا انطلقت اجري في الصحراء غير مبال بالشمس التي تحرق جلدي ولا بالرمال التي تكوي قدمي ، حتى ابتعدت عن العملاق ورأيته يختفي خلفي في الافق ، فوقفت استقبل الصحراء بصدر تصطرع فيه اسئلة بلا جواب عن مصيري .. فوقي سماء بلا غيوم ، تشتعل بشمس بلا دثار ، وتحتي رمال بلا مدى ، تلتهب بنار لا راد للهيبها . وانا السندباد واقف وحدي استقبل المجهول .

واخذت استعرض — سريعا — كل ما مر بي منذ عثر بي الدناسير عند فوهة الجب . وتساءلت لاول مرة تساءلت يا سادة يا كرام لماذا

فررت من مدينة الدناسير هذا الفرار المتعجل غير المتدبر ؟ أأفزعني انهم يأكلون بعضهم البعض ؟ ونحن ـ البشر ـ الا نأكل ايضا بعضنا البعض ؟! .. اي فرق بين هؤلاء الذين يفتنون بانفسهم ويسمنون من لحوم اخوانهم ، وبين اولئك التجار الذين قاضوني واولئك الاصحاب الذين خانوني ؟ أن كان الدناسير يوشكون ان يفنوا جنسهم بما يأكلون انفسهم ، فنحن ـ البشر ـ لا نقل عنهم شغفا ولا اقبالا على افناء جنسنا.

ودفعني هذا الخاطر الى أن اغفر للدناسير ما يفعلون ، بل الى ان اشعر بان التجار والاصحاب في بغداد ليسوا اشرارا بقدر ما هم ضعفاء ضالون ، ولو قد اهتدوا لما أقدموا على ما اقدموا عليه من شر. ووجدت نفسي اكاد اهتف من أعماقي « رب اغفر لهم فانهم لا يعلمون ». ولكنني انتبهت فزعا ـ شديد الفزع ـ الى انني اتفلسف فلسفة سخيفة ، فهل انقلبت قديسا يمسح الخطايا بدموعه ويخلص الخطاة بدمائه ؟! واخذت أتساءل : ما الذي القى في قلبي بكل هذه المغفرة وكل هذا الايثار ؟ ما الذي جعل هذه الافكار الطيبة تنبثق في صدري الساخط الثائر ؟ اتراها الصحراء ؟ نعم يا سادة يا كرام ، فالصحراء التي كنت اقف على اعتابها كان لها ـ كما ادركت ـ قدرة خارقة على ان تطهر النفس من الكره ومن الحقد ، وان تصفيها للافكار النبيلة والخواطر الطيبة .

اية صحراء هذه ؟

وانبثق في قلبي ما يشبه الوحي :

« انت يا سندباد في صحراء الشيخ بهاء الدين . »

« صحراء الشيخ بهاء الدين التي مسيرتها الف عام ؟ »

« اجل يا سندباد مسيرتها الف عام ، فتهيأ وتقدم في رعاية الشيخ بهاء الدين . »

« ايرعاني الف عام ؟ »

« هو الشيخ بهاء الدين .. ! »

« بلا زاد ولا ماء ؟ »

« هو الشيخ بهاء الدين .. ! »

« ولا اجر ادفعه له ثمن الرعاية ؟ »

« هو الشيخ بهاء الدين .. ! »

وتقدمت ، يا سادة يا كرام ، في رعاية الشيخ بهاء الدين لابدأ رحلتي الثانية .

***

الرحلة الثانية

مضيت اضرب في الصحراء ساعة بعد ساعة ، والشمس فوقي تشوي جلدي بلهيبها ، والرمال تحتي ساخنة تمتد الى اقصى ما يمتد اليه البصر ، ولم ابال بلهيب الشمس ولا بكي الرمال ، الم يعدني الشيخ بهاء الدين بان يرعى خطوي الف عام بلا زاد ولا ماء ، وبلا اجر ادفعه له بعد الوصول ؟ولكن لامبالاتي بالحر والتعب ، وثقتي في الشيخ بهاء الدين بدأتا تتراجعان اما متخاذل ساقي وغليان دماغي وبدأ الجوع ينهش احشائي بمخالب دامية ، واخذ الظمأ يلهب جوفي بسياط لا ترحم ، وهنا بدأت اتساءل ان كان الصوت الذي انبثق في قلبي يمنيني برعاية الشيخ بهاء حقيقة ام خداع امال كاذبة ولدتها الصحراء ؟ نعم ، الا تولد الصحراء صورا كاذبة المياه وتخيلا تخدع به الضارب في ارجائها وتقوده الى حتفه في النهاية ؟ فماذا يمنع ان تولد اصواتا تحدثه ايضا بامال كاذبة تقوده هي الاخرى الى حتفه ؟ لقد كنت احمق مأفونا يا سندباد عندما صدقت هذا الهاتف الخفي فاندفعت الى جوف الصحراء بلا طعام او شراب ، وخير لك ان تعود الى مدينة الدناسير حيث تبحث عن فوهة الجب من جديد .

واستدرت يا سادة يا كرام لاعود ، ولكن الهاتف الخفي انبثق مرة اخرى في قلبي :

« الا تثق بالشيخ بهاء الدين يا سندباد ؟ » .

« وكيف تريدني ان اثق بمن لا اراه ولا اعرف عنه شيئا ؟ »

« الا يكفيك ان تعرف انه موجود ؟ »

« حتى وجوده بدأت اشك فيه . »

« انت احمق يا سندباد، ولولا أن الشيخ بهاء الدين يحبك لتركك تموت جوعا وظمأ . »

« وهل تراه مد لي يدا تدفع عني الجوع والظمأ ؟ »

« نعم ، التفت وراءك تر . »

ولم التفت ورائي يا سادة يا كرام كما امرني الصوت المنبثق في قلبي ، بل اخذت ادب فوق الرمال الساخنة عائدا وقد سلمت امري لله فليفعل بي ما شاءت ارادته ، اما ان اضلل نفسي بالشيخ بهاء الدين الذي لا اعرف عنه شيئا فهو الخرق كل الخرق .

« التفت وراءك يا سندباد تر . »

دعني من شيخك المجهول ، لقد سلمت امري لله .

« التفت وراءك يا سندباد تر . »

وماذا يمكن ان ارى ؟ عينا تتفجر بالماء الزلال ؟!

« التفت وراءك تر . »

وماذا يمكن ان ارى ؟ حملا مشويا يسيل منه الدهن ؟

« التفت وراءك تر . »

طبقا من الفالوذج او السباكج ؟

« التفت وراءك تر . »

ودماغي يغلي حتى لاحس بنافوخي يسيل على عيني .

« التفت وراءك تر . »

والرمال تتراقص امامي وتنبعث منها اشباح تبرق .

« التفت وراءك تر . »

وساقاي تلتفان وتتهاديان نحو ظلمة لزجة

« التفت وراءك تر . »

واحس بنفسي انحدر وانحدر في اعماق الظلمة اللزجة حتى ارتطم بسطح لين ناعم ناعم كفراش من ريش النعام لولا انه ملتهب كانما تحته الف موقد .

« التفت وراءك تر . »

حسن ، ها انذا التفت ورائي ، وهل املك الا ان التفت . ؟ ولكن .. ماذا ارى ..؟!!! ولن تصدقوني يا سادة يا كرام ، فانا نفسي لم اصدق ما رأيت عندئذ ، لم ار عينا تتفجر بالماء الزلال ، ولا حملا مشويا يسيل منه الدهن ، ولا طبقا من الفالوذج أو السباكج ، لا .. لم ار شيئا من ذلك ، وانما رأيت ـ ولن تصدقوني مرة اخرى ـ جاريتي الزاهية . الزاهية بلحمها وشحمها ، بل وفي اغلى ثيابها التي اشتريتها لها بمئات الالوف من الدنانير . الزاهية التي تركتها ببغداد في الطرف الاقصى من الارض .. رأيتها هنا .. في صحراء الشيخ بهاء الدين . يا رب .. أن كنت كتبت لي ان أموت جوعا وظمأ في صحراء الشيخ بهاء الدين ، فلا تدع هذه الخطرفة تفسد علي احتضاري وتنغص لحظاتي الاخيرة في حياتي .

واستجاب لي الله سبحانه وتعالى ففقدت وعيي .

***

ولا اذكر ـ بداهة ـ يا سادة يا كرام ما مر بي وانا فاقد الوعي ، ولكنني وقد بدأت اثوب تدريجيا سمعت صوت الزاهية الحلو الرقيق يقول لي :

« انت بخير يا سندباد . »

لم تكن تسألني ، انما كانت تقرر وتؤكد انني بخير . والحق انني لاحظت فعلا انني بخير ، فقد توقفت دماغي عن الغليان ، وكف نافوخي عن ان يسيل من عيني ، وانداحت الظلمة اللزجة التي كنت اتهاوى فيها ، وانسلت مخالب الجوع مبتعدة عن احشائي ، وارتفعت سياط الظمأ المحرق عن جوفي . كنت حقا يا سادة يا كرام في خير حال ، وكأنني لم الق في جب هارون ولم اهرب من الدناسير ولم احترق في صحراء الشيخ بهاء الدين ، كنت كأنني اصحو في فراشي الوثير في قصري الفخم ببغداد وبجواري الزاهية تقول :

« انت بخير يا سندباد . »

« نعم انا بخير يا زاهية ، وكنت احلم حلما بغيضا ثقيلا . »

لم اشك قط في ان كل ما مر بي انما هو كابوس رهيب ، ولا بد انني افرطت في عشائي ليلةالامس ، وحمدت الله على انقضاء هـذا الكابوس ، وعاهدت نفسي على ان احرص في تناول العشاء من بعـد ، ثم فتحت عيني لاستقبل حياتي الرخية في قصري،ولكنني عدت اغمضهما مسرعا ، ثم فتحتهما ثانية ، ثم عدت اغمضهما مسرعا ، وفتحتهمـا ثالثة ، ثم حدقت واطلت التحديق ، وتلفت حولي غير مصدق .. كانت الزاهية بجانبي حقا ، ولكنني لم اكن على فراشي ولا في قصري، وانما كنت لا ازال في صحراء الشيخ بهاء الدين ، فها هي ذي الرمـال تمتد حولي الى اقصى مما يمتد البصر ، وان كنت لا احس بحرارتهـا الكاوية ، وها هي ذي السماء تنبسط فوقي بلا غيوم ، تلهبها شمـس محرقة بلا دثار ، وان كنت لا اشعر بلهيبها .

اذن ، فكل ما مر بي كان حقيقة وواقعا ؟

ولكن ، ما الذي جاء بالزاهية هنا ؟ اجل ، ما الذي جاء بك يـا زاهية من بغداد ؟

« انا لست بالزاهية صاحبتك يا سندباد »

واتسعت حدقتاي ، وكنت اظن ما رأيته آنفا قد وسعهما الـى مداهما .

« لست الزاهية ؟ ومن تكونين اذن ؟ »

« طيف صور على مثالها . »

« ومن ذا الذيصورك على مثالها ؟ »

« الشيخ بهاء الدين . »

الشيخ بهاء الدين مرة اخرى ؟ وجلست يا سادة يا كرام فـوق الرمال أتأملها .. كانت هي الزاهية عينها لو لم تنف هي كونها كذلك . واردت ان اتحقق من انها لا تعبث بي ، فمددت يدي امسك بذراعهـا ، ولكن اصابعي اطبقت على فراغ . نعم يا سادة يا كرام ، لم تمسـك اصابعي الا الفراغ .

بعد دراسات وابحاث استغرقت عدة سنوات ، تمكن علماء الكيمياء من اكتشاف :

DUO SUISSE

الدواء العجيب الذي يزيل قشرة الراس والحكـاك وبعض تساقط الشعر

مختبرات ديو سويس - سويسرا

الوكلاء العامون والموزعون

منيمنة - شارع البرلمان ، بيروت

« انت اذن طيف ؟! »

« قلت لك هذا فلم تصدقني . »

« والشيخ بهاء الدين هو الذي صورك على مثال الزاهية ؟ »

« نعم . »

« شيخك هذا ساحر كبير ؟ »

« شيخي هو كل شيء .. هو الاول والاخر والوجود والعدم والحياة والموت . »

ولم استغرب يا سادة يا كرام ان تصف ساحراً بمثل هـذه الاوصاف ، فهو بارئها ومصورها ، وايما كان الامر فلا شأن لي بـه الا بما يمد لي من العون لاجتاز صحراءه التي مسيرتها الف عام . ولـم اكن أعرف نياته نحوي ، فالتفت الى طيف الزاهية وقلت :

« حسن .. ؟ ثم ماذا ؟ »

« وهو المعطي والمانع والـ ... »

« دعينا من صفاته يا طيفها .. انما اسألك عما يريد بي . »

« لا يريد بك الا الخير ، فهو الخير والحق والجمال . »

« يا سبحان الله .. أأمرك بان تتركيني ملقى على الرمال لاسمع تقريظك اياه وثناءك عليه ؟ »

« وماذا تريد انت ؟ »

« اريد ان اعود الي بغداد ان كان هذا في استطاعته . »

« كل شيء في استطاعته ، فهو القادر القوي العالي الـ ... »

« فليعدني الى بغداد اذن . »

« دون ان تراه وتشكر له ما اسبغ عليك من فضله ؟ »

وكان في صوتها لوم وتأنيب اخجلاني ، نعم ، فالذوق ان اقـابله واقدم له شكري ثم اسأله بنفسي - في ادب - ان يعيدني بسحـره الى بغداد .

« الحق معك يا طيفها ، خذيني اليه . »

« اغمض عينيك اذن يا سندباد . »

واغمضت عيني .

« افتح عينيك الان يا سندباد . »

وفتحت عيني . ومرة اخرى اخذت اغمضهما وافتحهما لاتحقق مما ارى . فمع انني لم اتحرك من مكاني ما بين غمضة عيني وانفتاحهمـا ، الا انني انتقلت من الصحراء الجرداء الى جنة من اطيب الجنان التـي يرقى اليها التصور ، فتحت قدمي وحولي ، يا سادة يا كرام ، تجري جداول صافية كالبلور ، او هي البلور ان كان للبلور ان يسيل ، تسبح على سطحها طيور اجنحتها ألوان شتى ، وريشها من اسلاك الذهـب والفضة واللؤلؤ والمرجان ، ومناقيرها كثغور راقصات زنجيات ممطوطـة الى امام في توقع قبلات العشاق المتيمين ، وكلما رفت تلك الطيـور باجنحتها يا سادة يا كرام تضوع حولها المسك والعنبر والغالية . اما شطآن تلك الانهار فكانت بسطا زاهية الخضرة .. اتعرفون المرعى قـد اغتسل غب المطر ؟ انه يبدو باهتا اذا قورن بشطآن تلك الانهـار . واشجار تلك الجنة حوت كل غريب نادر من اصناف الشجر ، وحتـى تلك الاصناف المألوفة المعروفة كانت في هذه الجنة ذات صفات خارقة . العنب .. العنب يا سادة كلكم تعرفونه ، اما عنب الشيخ بهاء الديـن فقد كانت الحبة منه في حجم هذه العمائم التي تثقل رءوسكم ، والكمثرى يا سادة يا كرام ، كمثرى الشيخ بهاء الدين لـو اجتمع منكـم عشرة ليحملوا واحدة منها لناءوا بها . اما التفاح فأمره اعجب ، لو جئتكم بتفاحة منه الان لضاقت هذه القاعة وما يتصل بها من دهاليز عـن ان تحتويها . ماذا أقول يا سادة يا كرام في وصف جنة الشيخ بهاء الدين وماذا اترك ؟

وسألت طيف الزاهية :

« واين الشيخ بهاء الدين ؟ »

فاشارت ثم وسجدت . والتفت حيث اشارت فاذا بي امام شيخ مهيب جميل الطلعة يتفجر نور الحسن مـن خديه ، وتتـلألأ سيمـاء المهابة في جبينه . اهو الشيخ بهاء الدين ؟

« اجل يا سندباد ، انا الشيخ بهاء الدين . فهل اطمأن قلبك ؟ »

ولم ادر بم اجيبه ، فهل من الممكن ان يكون في الكون ما يبعث الاطمئنان في القلب مثل هذا الذي ارى الان ؟

واشار الشيخ بهاء الى طيف الزاهية فاختفى ، ثم اومأ لي بطرف حلو ان اقترب فاقتربت ، والحق يا سادة يا كرام ان حسنه ومهابته جعلا خطوي يتردد ثم يبطيء ثم يتوقف . وقال الشيخ :

« هيه سندباد ؟ ما رأيك في ؟ »

« انت انت العظيم . »

فازداد نور الحسن تألقا في خديه ، وتوهجت سماء المهابة في جبينه .

« زه زه يا سندباد . »

« اتتحدث الفارسية ؟ »

« بل كل لغات اهل الارض ، ولغات الوحش والطير ايضا يا سندباد . فما رأيك في هذا ؟ »

« انت انت العالم اذن . ! »

فازداد نور الحسن تألقا في خديه عما كان ، وكذلك اشتد توهج سماء المهابة في جبينه ، واومأ لي مرة اخرى لاقترب ، فقلت :

« لا اجسر على ان ادنو منك اكثر مما دنوت . »

« ولماذا يا سندباد ؟ أأنا اخيفك ؟ »

« حاشاك ان تكون مخيفا ، ولكن صدقني ان لك لرهبة يخشع لها القلب . »

« زه زه يا سندباد .. ! »

ولاحظت يا سادة يا كرام شيئا جديدا ، فهو فضلا عن تألق نور حسنه وتلألؤ سماء مهابته ، قد اخذ يزداد طولا وعرضا حتى خيل الي انه اصبح ضعف ما كانه اول ما رأيته . وتذكرت انه ينبغي علي ان اقدم له الشكر ثم اسأله ان يعيدني الى بغداد بقوة سحره ، فانحنيت في خشوع حقيقي وقلت له :

« لو كان الثناء والشكر ينظم عقودا لنظمت لك من اعماق قلبي ما اجده فيه من حمد لك واقرار بالفضل . ولكن الشكر مهما رنق وزوق لن يوفيك حقك . »

« ولماذا يا سندباد ؟ »

« لان قدرتك اعظم من الشكر ، وفضلك اعظم من الثناء . »

« لا عليك يا سندباد ، فكلما زدتني شكرا زدتك نعمة ، وكلما اثنيت علي اسبغت عليك من افضالي . »

« فهل لي ان اطمع اذن ان تعمني افضالك فتعيدني الى بغداد ؟ »

« انت احمق يا سندباد . »

وتغير وجهه يا سادة يا كرام حتى خيل الي ان الغضب لو تجسد لا يكون الا ما اسود في عينيه :

« اتترك هذه الجنة التي صورتها من اجلك لتعود الى بغداد ؟ »

« بغداد بلدي يا شيخ .. ! »

« بلدك يا احمق .. ! .. تعال وانظر الى بلدك . »

ورفع في يده كرة من البلور الرائق المصفى ، ودفعها امام عيني :

« انظر .. انظر لترى بلدك . »

ونظرت في الكرة البلورية فرأيت بغداد .. بلدي بقبابها ومآذنها ، بقصورها واكواخها ، برياضها وازقتها . ثم تمازجت الصور في كرة البلور لتعود فتنسج صورة واحدة هي قاعة المحتسب ، ورأيته ـ المحتسب نفسه ـ يجلس تحت جدار علقت فوقه السياط وقيود الحديد ، وامامه التجار يتقدمهم شيخهم ، وسمعته باذني هاتين يصرخ في رجاله :

« من يعثر منكم بالسندباد فليحضره عندي هنا .. حيا او ميتا . ! »

وشاهدت ـ في كرة البلور ـ رجال المحتسب يهمون بالانصراف من امامه ، ولكنه استوقفهم صارخا بهم :

« بل انتظروا . ان عثرتم به فلا تقتلوه .. اريده حيا .. نعم .. هاتوه لي حيا حتى اشوي جوارحه بالنار جارحة جارحة . »

التتمة على الصفحة ٤٦

الملاك الصغير

من قبل ما اراك
من قبل ما تكتحل العينان من مرآك
اعلم كل شيء عنك يا ملاك
اللؤلؤ النقي حينما ينحسر الغطاء
البسمة التي تضيء ، فالنجوم في استحياء
البشرة الملساء في مقومة الحرير
والنظرة التي تعانق الاشياء
فتستحيل كلها ـ لديك ـ اصدقاء
والرغوة التي كرغوة الحليب
تفيض حينما تريد ان تلقى لنا « بحكمة الصغار »
فيعجز المحار ان يستوعب اللآلىء الكبار
يأيها المسافر الذي القى عصا التسيار
ولم يجيء بأي زاد
من أين جاءك الغنى ؟
فكل من رآك عاد في يديه ما يساوي مدنا
سكانها كغابة ما اورقت ، وما ابتنت بها الطيور مسكنا
لان كل من وراء سورها ترهبنا
لم ضممت راحتيك عندما طرقت باب بيتنا ؟ (١)
يقال : ما بينهما من الكنوز يقتنى
فلو رآه راهب في ديره لافتتنا
فخفت ان نمتحنا
يا زائرا اتى مدينتي الموصدة الابواب
تسلق الجدران ، القى الورد من نافذتي .. فحوم الفراش
من يومها اهش للطيور تجمع الاعواد ، تبتني الاعشاش
وازدري الغربان ، والنسور ، والاشرار
يصوبون نبلهم الى ذرى الاشجار
فكل طائر يود ان يرى فراخه الصغار

كيلاني حسن سند

---

(١) اشارة الى اسطورة شعبية تعلل السبب في ان الطفل يولد مضموم اليدين .

الاذهان مآثره البطولية في معارك الاسلام الحاسمة. ورغم هذا التشبث بالمسائل الجانبية ظلت كلمة هؤلاء تدور حول مؤهلات علي وكفاياته الشخصية ، واستعداده الواضح للسير بالناس في طريق العدل والمساواة .

ثم ظهرت عقيدة النص على الامام . وكان ظهورها متأخرا عن زمن علي . ولم يكن القصد من طرح هذه العقيدة سوى تقديم دليل جديد على احقية علي بالخلافة، ومن ثم توجيه انظار المسلمين الى خلفائه من زعماء الشيعة – بفروعها المختلفة – بوصفهم احق بالامامة من سواهم . ومما تجدر ملاحظته ان القسم الاعظم من هؤلاء المرشحين للخلافة من احفاد علي كانوا في جميع ادوارهم اقرب الى قلوب العامة من الخلفاء الذين تداولوا الحكم بعد الراشدين ، وبالتالي يمكن القول ان دعوى النص عليهم لا تتناقض عمليا مع فكرة الاختيار اذ ان نصب هؤلاء للخلافة كان يستجيب لارادة العامة من الامة .

ومن هنا كان القائلون بالنص يتمسكون احيانا كثيرة بالاختيار ويدعون الى الشورى ، لانها لا تخيفهم . في حين حارب الخلفاء في العهدين الاموي والعباسي فكرتي النص والاختيار معا .

ان هذه الحقيقة تظل صحيحة طوال عصور احتدام الصراع السياسي بين الفرق الشيعية والسلطة الحاكمة. والصراع لم يتوقف الا بعد انقراض الحضارة الاسلامية في الفترة التي اعقبت هجمات البرابرة من الاتراك والمغول على العالم الاسلامي . ففي هذه المرحلة بدأت الفرق الاسلامية – ومنها الشيعة – تفقد طابعها السياسي وتأخذ بالتحول الى طوائف دينية . وكان من نتائج هذا التحول ان تخلت الفرق عن الاهداف الاصيلة التي كانت وراء ظهورها في الاصل على مسرح التاريخ ، واحتفظت بما تبقى من عقائدها – بعد ان افرغته من محتواه الاجتماعي – ليكون جزءا من شعائرها وطقوسها الدينية البحتة. ومن هذه العقائد دعوى النص والعصمة كما تفهمها اليوم طوائف الشيعة المعاصرين . ولعل تكهنات الباحثين حول هذه العقيدة متأثرة بفهم المتأخرين لها . والمتأخرون من الشيعة أخذوها من الكتب ، او نقلوها عن بعضهم تقليدا . ولم يقيض لهم معايشتها في ميادين الصراع حتى يكون بمقدورهم ادراك الظروف والعوامل التي دفعت اسلافهم الى التمسك بها وجعلها اصلا مهما من اصول مذهبهم . ولسنا في حاجة الى الخوض في عقائد المتأخرين في هذا الباب ، فهي معروفة . ولا يزال سيل من الابحاث يدور حولها ، دون انقطاع ، حتى هذه الساعة ...

بغداد هادي العلوي

رحلات السندباد

– تتمة المنشور على الصفحه ٢١ –

وعادت الصورة تمتزج الوانها وخطوطها ثم تنبسط لارى شوارع بغداد ، ورجال المحتسب يطوفون بها يستوقفون المارة ويتفحصون وجوههم .

ثم ذابت الصورة الاخيرة في صفاء البلور ، وتركتني ارتجف رعبا. فابعد الشيخ بهاء الدين الكرة وقال في نبرة نغمتها شماتة بي :

« اتود حقا ان تعود الى بغداد ؟! »

« اكون احمق ان فكرت في ذلك . ! »

فابتسم الشيخ بهاء الدين ابتسامة اضاءت المنطقة التي تفصل ما بيني وبينه ، ثم قال :

« تبقى اذن في جنتي التي صورتها من اجلك ، وعهد علي الا تجوع فيها ولا تظمأ ، ولا تحزن فيها ولا تتعب . وكل ما تشتهيه نفسك تجده طوع امرك .. هذا ... » واشار الى يمينه « نهر من خمر يجري تحت قدميك . وهذا » واشار الى يساره « نهر من الجواري الحور كلهن رهن اشارتك » .

والتفت يا سادة يا كرام الى يساري ، فاذا بنهر امواجه خمر معتقة تخجل منها خمر بابل ، ثم التفت الى يميني ، فاذا بنهر من الجواري الحور ، كل موجة من امواجه تعلوها عشر من الجواري الفاتنات يخبو بجوارهن حسن جاريتي الزاهية . فهتفت في حماس :

« اني اذن لاحمق ابن احمق لو فكرت في الخروج من جنتك . »

وخطر لي – فجأة –يا سادة يا كرام سؤال جعلني اتردد في حماستي ، فرفعت اليه عينين فيهما نظرة شك وخوف وقلق ، ويبدو انه ادرك ما دار بخاطري ، فقد اسرع يقول :

« لا تخف يا سندباد ، فلن اطلب منك شيئا في مقابل كل هذا الذي امنحك اياه . »

ولم اصدق اذني ، فهو قد انقذني من الهلاك في الصحراء ،وهذه نخوة يمكن ان تكون بغير مقابل ، ثم هو جنبني العودة الى بغداد والوقوع بين يدي المحتسب ، وهذه ايضا نخوة يمكن ان تكون بغير مقابل ، اما ان يقدم الي كل هذه المتعة وكل هذه الخيرات واللذائذ ثم يزعم انها بغير مقابل .. ؟!!

« لا اريد منك شيئا اكثر من ان تعرف قدرتي . »

« انت انت القادر . »

فتوهج نور الحسن في وجهه ، وتألقت سماء المهابة في جبينه، ونما جسمه طولا وعرضا .

« وان تشكر احساني . »

« انت انت المنعم . »

فازداد توهج نورحسنه وتألق سماء مهابته ، ونما جسمه اكثر مما كان .

« وان تخشع لعظمتي . »

وهنا ترددت ، فقد لاحظت انه يستدرجني خطوة خطوة نحو لون من العبادة ، وانا يا سادة يا كرام لا اعبد ، ولا يمكن ان اعبد ، غير الله سبحانه وتعالى، اما هذا الساحر ،فمهما قدم لي من خير ونعمة ، فلن يسوقني الى الاشراك والكفر .. ابدا لن اكفر او اشرك بالله عز وجل .

ولما طال صمتي رأيت نور حسنه يخفت ، وسماء مهابته تتضاءل ، وجسمه الذي استطال واستعرض عاد يصفر ، ليرتد كما كان . وتململ الشيخ من صمتي وقال :

« هيه سندباد .. الا تود ان تخشع لعظمتي ؟ »

« العظمة لله وحده ياشيخ . »

« سندباد .. ! »

وكانت في صوته رنة خوف لم تخف علي ، والحق انني لو كنت مكانه لخفت خوفا ليس له حد ، فان اعتراضي على الخشوع لعظمته قد اصابه بما فتح ذهني على الحقيقة ، لقد انطفأ ـ او كاد ـ نور حسنه، واختفت ـ او كادت ـ سيماء مهابته ، ثم ضؤل جسمه حتى اصبح ناحلا قزما كأنه صبي صغير لولا تجاعيد خشنة غطت وجهه . هو اذن يعيش وينمو على كلمات الثناء التي يسمعها ، وهذا هو الثمن الذي يتقاضاه بما قدم الي جنته .. ان اثني عليه واشكر له . واردت ان اتحقق من ظني فقلت له :

« انك حقا لقادر . »

وصح ما توقعت ، فقد عاد نور حسنه يتوهج ، وسيما مهابته تتألق ، ونما جسمه طولا وعرضا حتى عاد رجلا سويا . وعندئذ ، وقد فهمت ما فهمت ، انتهيت الى رأي ، فقلت له :

« اسمع يا شيخ ، انت لم تخدعني بادعائك الكرم والاريحية،انك تعطيني جنتك بما اقدم لك من ثناء وشكر تنمو بهما وتكبر . فلماذا لا نعقد صفقة عادلة بيننا . ؟ انت تعطيني كل ما اشتهي ، وانا اثني عليك مرة في الصباح ومرة في المساء . ما رأيك في هذه الصفقة ؟ »

« لست بتاجر يا سندباد .. »

« ولكنني انا التاجر ابن التاجر . فماذا قلت ؟ »

فتردد قليلا ثم قال :

« هبني رفضت صفقتك . ؟ »

« تستطيع اذن ان تلقي بي الى بغداد ، او ان تردني الى الصحراء . »

« لتموت ؟ »

« وتموت انت ايضا ، فلا احسب ان لديك من يقدم اليك غذاءك من الثناء والشكر . »

« استطيع ان اصور ما اشاء ليثنوا علي خيرا منك . »

« انت لن تخدعني مرة اخرى بهذا التهديد ، انت لا تصور الا اطيافا لا وجود لها الا في الوهم ، ومثل هذه الاطياف لا وزن لثنائها عليك ، فالوهم لا يقدم الا الوهم ، اما انا ، فانني الحقيقة المريدة الوحيدة في عالمك هذا . »

ففكر لحظة ثم قال :

« يا سندباد ، انت مخلوق مشاغب .. حسن .. اترك لي فرصة الى غد لافكر في صفقتك . »

فترددت قليلا .. لا بأس في ان ارجىء عقد هذه الصفقة الى الغد ، وانا واثق من انه سيقبلها ، وهل لديه عوض عنها ؟ وان كنت اتوقع ان يساوم ويوغل في المساومة قبل ان يستسلم ، وانا لا مانع عندي من ان ارفع عدد المرات التي اثني عليه فيها من مرتين الى ثلاث ، بل الى اربع وخمس في اليوم ، فالامر لن يكلفني اكثر من ترديد بعض الكلمات ، والكلمات يا سادة يا كرام كانت في تلك الايام ـ وهي ايام جهلي ـ لا تساوي شيئا ، لم اكن قد ادركت بعد ان الكلمة حق، وان الكلمة قوة ، وان الكون مخلوق بالكلمة . وعلى هذا قلت له :

« سارجىء الحديث معك الى الغد ، ولكنني احتاج الان الى شيء من نعمك .. فهل تعترض على ان تمنحني اياها الليلة نسيئة ؟ »

« مثل ماذا يا سندباد ؟ »

« انا جائع في حاجة الى طعام ، وظمآن في حاجة الى شراب ، ومتعب في حاجة الى فراش .»

فابتسم يا سادة يا كرام وقال لي :

« اتريد ان تأكل ام ان تشبع ؟ »

وبدا لي سؤاله بلا معنى ، فالفرق بين ان آكل وان اشبع هو فرق في الكلم فقط ، وادرك الشيخ ما دار بذهني فعاد يقول :

« بل هناك فرق بينهما في جنتي ، تستطيع ان تلتهم كل ما في هذه الجنة من اطايب المأكولات دون ان تحس بالشبع ، ولكنني استطيع ان اشبعك دون ان يلوك فكاك مضغة واحدة . »

« عفوا يا شيخ .. اترى اللحظة ملائمة لتعظني وتحدثني عن القناعة .. ! انا جوعا وظمآن ومتعب .. ! »

فاشار يا سادة يا كرام نحو بساتين جنته وقال :

« اذن اليك كل ما في الجنة ، فكل واشرب كما تشاء ، وعندما تريد ان تشبع انطق بكلمة ثناء واحدة . »

فلم انمهل لافهم ما يقول ، كان حسبي قوله كل واشرب كما تشاء، فاندفعت الى الاشجار لالتهم ما نضج من ثمارها ـ وكل ثمارها ناضج ـ وانحدرت الى نهر الخمر لاعب منه عبا ، ولكنني يا سادة يا كرام لاحظت شيئا جعلني اتوقف في دهشة ، فعندما هجمت على تفاحة في حجم هذه القاعة واخذت انهشها باسناني في نهم ، وجدت ان اسناني تقضم لا شيء ، واضراسي تمضغ لا شيء ، وحلقومي يزدرد لا شيء ، هناك حقا تفاحة امامي اقضمها وامضغها وازدردها ، ولكنني لا اكاد افعل حتى اكتشف هذا اللاشيء الذي يفقد التفاحة طعمها وجرمها ويجعلني ازدرد الهواء . فالتفت نحو الشيخ بهاء الدين وصحت به :

« ما هذا يا شيخ ؟ انفاحتك وهم مثل طيف الزاهية ؟! »

فضحك وقال :

« لقد حذرتك فلم تحذر . وسألتك ان كنت تريد ان تأكل او ان تشبع . »

« اريد ان اشبع . »

« اثن علي اذن . »

« اشبعني نسيئة . »

« انت تاجر ابن تاجر وتعلم ان للنسيئة شروطا لا تتوافر لديك الان . اثن علي تشبع . »

فقلت في غيظ شديد : « انت ماكر يا شيخ . »

فضحك حتى اغرق في الضحك ، وازداد جسمه طولا وعرضا ، ثم قال :

« هذا حسن ، انك اثنيت علي من حيث لا تدري ، اذهب فانت شبعان . »

وفي لحظة واحدة تبدد كل احساس بالجوع كان يمزق احشائي، وقال الشيخ :

« اتريد ايضا ان ترتوي ؟ اثن علي مرة اخرى . »

وكان احساسي بالظمأ قد غدا لا يطاق ، فلم اتردد في ان اقول له:

« انت انت المنعم . »

« وانت انت المرتوي . »

وتبدد مرة اخرى في لحظة احساسي بالظمأ ، ولكن بعد ان ازداد جسم الشيخ طولا وعرضا حتى صار ضعف ما كان ، وقال الشيخ :

« وانت متعب تريد ان تستريح . ؟ »

فقلت دون تردد : « انت انت العظيم . »

« وانت انت النائم. »

وازداد جسمه طولا وعرضا حتى كاد يطاول الشجر حوله ، ولكنني في مقابل ذلك وجدت نفسي على فراش اطرى من نسمة الفجر وانعم من انفاس الزاهية ، فاغمضت عيني ، ونمت حتى الصباح .

ولست اود ان اطيل عليكم يا سادة يا كرام ، فلعلكم ادركتم ان الصفقة تمت بيني وبين الشيخ بهاء الدين منذ الساعة ، فهو يقيني الجوع والظمأ ويهيىء لي كل ما اشتهي من متعة ـ وان كانت اوهاما ـ وانا اقدم له مقابل كل خدمة من هذه الخدمات كلمات من الثناء والحمد يزداد بها نور حسنه تألقا ، وينمو بها جسمه طولا وعرضا . وقد عشت معه ما شاء الله لي ان اعيش وانا قانع راض بما قسم لي ، الى ان صحوت يوما على سؤال : ما مصير هذا كله ؟ انني ارى الشيخ قد طال واستعرض حتى شغل نصف الجنة او اكثر ، وامتدت عنقه حتى كادت تطرق ابواب السماء ، وتضخمت بطنه حتى كادت تسد ما بين مشرق الشمس ومغربها ، ولكن انا .. ؟ انا السندباد .. ؟ ماذا سيكون من امري في المستقبل . ؟ ماذا افدت من هذه الصفقة سوى الوهم ؟

ومنذ صحوت على هذا السؤال ، بدأ القلق والهم يفسدان علـى جنة الشيخ ، وفقدت لذاتها معناها ان كان لها فيما مضى معنى.وادرك الشيخ ـ فهو لا يخفى عليه ما يسر ضميري ـ ما بدأت اضيق به فاخـذ يتفنن فيما يقدم الي منمتع ومباهج ، ومنحني مسرات جديدة كـان اهمها بساط الريح الذي اذن لي في ان اتطيه واطوف به حيثما شئت في جنته دون ان يأذن لي بتعدي حدودها ، وكان من بين هذه المباهـج ايضا كرته البلورية التي اذن لي في ان ارى ما شئت من العوالـم خلالها . وكان اكثر ما احب ان انظر اليه بلدي بغداد بقبابها ومـآذنها وقصورها واكواخها . وقد عرفت ـ من الكرة البلورية ـ ان المحتسب قد اصابه اليأس من ان يعثر علي ، وضاق بالحاح التجار وصفاقتهم فاحالهم الى قصري قائلا لهم بيعوا قصره واستوفوا ديونكم بثمـنه، وقد اشفقت على القصر وما به من تحف ان يقع في ايدي هؤلاء الاجلاف، وكان اشد اشفاقي على جاريتي الزاهية التي سوف يعتبرها التجار من متاع القصر ومن ثم يعرضونها للبيع في سوق النخاسين . وقد سألت الشيخ بهاء الدين ان كان سحره يستطيع ان ينقذ قصري او حتىينقذ الزاهية وحدها ؟ فضحك الشيخ واكد لي ان التجار انفسهم همالذين سينقذون القصر والزاهية من الضياع . ولم اصدق نبوءة الشيخ حتى كشفت لي كرة البلور ان التجار كانوا يجتمعون كل يوم ليبيعواقصري، فيطمع فيه كل منهم ويأخذ في المزايدة عليه حتى ينقضي النهار دون ان يرسو المزاد على واحد ، فيرجئونه الى اليوم التالي وهكذا . وقـال الشيخ معلقا على موقف التجار :

« اطمئن يا سندباد ، فلو ظل التجار الى يوم القيامة يزايدون على قصرك وزاهيتك ما سمح واحد منهم للاخر بان يستولي عليه . »

واعود بكم يا سادة يا كرام الى ما كان من امر الشيخ وامـري ، فقد مضت الايام حتى فقدت مسراته الجديدة لذتها ، واصبحت يومـا برما ضجرا قلقا ، فلم اسع الى الشيخ لاقدم اليه ثناء الصباح،وقلت في نفسي : فليذهب الى الجحيم بجنته ومتعه الموهومة . ويبـدو ان الشيخ ـ وهو يدرك ما يسر ضميري ـ قد سمع ما قلت ، فجاءنيغاضبا:

« سندباد .. انت اسأت الادب .. ! »

فنظرت اليه يا سادة يا كرام ، كانت رأسه تخترق السحاب،وبطنه تميل نحوي ـ منتفخة ـ كجبل يوشك ان ينقض ، وانفاسه حـارة كريهة تشعل الجو حولي . ولكنني قلت له :

« لقد مللتك يا شيخ .. ! مللك الثناء عليك ، ومللت متعـك الموهومة ، ومللت وجودك كله ، بل ومللت وجودي نفسه . »

« انسيت صفقتنا .. ؟ »

« اذهب انت وصفقتك الى الجحيم . »

فارتعد يا سادة يا كرام ، وتزلزلت الارض تحتي لارتعاده ، وقـال لي مهددا : « انت تحكم على نفسك بالموت . »

« وعليك ايضا يا شيخ. »

« هو التمرد اذن ؟! »

« اذهب الى الجحيم .»

« اذا كنت تحسب نفسكندا لي فانت واهم ، وانا لست فـي حاجة الى ثنائك لاوجد كما تعتقد ، فقد كنت موجودا قبل مجيئـك ، وسأظل موجودا بعد فنائك . »

« اذا صح ما تقول ،فلماذا لا تقتلني فتستريح وتريحني ؟ »

« لا يبقي عليك الا اشفاق مني وحنو ، فانا شفوق حنون .الست كذلك يا سندباد . ؟ »

وكانت الايام السالفة علمتني يا سادة يا كرام ان الشيخ قـادر على ان ينتزع مني بمثل هذه الاسئلة الخادعة ما يحتاج اليه من غـذاء الثناء . فادركت انه قد انحرف بالصراع في مكر لينتزع مني اعترافا بانه شفوق حنون فيزداد ـ على كلماتي ـ طولا وعرضا . ولما كنت قـد مللته ، وكان هذا الصراع الذي شب بيننا فجاة يشعرني بمتعةجديدة ، فقد قلت له ساخرا :

« انت ابلهمغرور .. ! »

وتضاءل الشيخ حتى ظهر رأسه تحت السحاب ، فبدا ممتقـع الوجه مذعور الملامح ، وسرني هذا ايما سرور ـ لا ادري لماذا ؟ ربما كانت مجرد لذة صبيانية ـفعدت اقول :

« بل انت كافر زنديق مستقره في سقر ، اتريد يا اغبى ما فـي الكون ان اعبدك ـ انا السندباد ـ من دون الله عز وجل .. !!؟ »

فقصر طوله وانقبض عرضه حتى اوشك ان يصبح في طـول الاشجار ، وارتفعت من فوقي بطنه المنتفخة التي تشبه الجبلالمنقض . ولاح في عينيه توسل ورجاء ، وتلجلج في كلام لم اشك في أنه قصـد به اجتلاب رضاي ، ولكنني ـ انسياقا للملل وخضوعا للذة الصبيانية ـ مضيت اقول له :

« ارأيت انني استطيع ان اقضي عليك بالكلمة ؟ كما اقمتكبالكلمة اقضي عليك بالكلمة .. ؟ »

وادرك حينئذ ان استجلاب رضاي مستحيل ، فآثر في ذكاء ان يفر من امامي بما تبقى له من كيان . واستدار وهو يلوح فوقي مهددا :

« سترى يا سندباد .. لاسلطن عليك الجوع والعطش حتى تـأتي خاشعا لتسجد تحت قدمي . »

وابتعد قبل أن يسمع رأيي في تهديده ، ولكنني ـ استمتاعـا بلذة الصراع ـ صحت في اعقابه باعلى صوتي :

« يا شيخ .. انت انتالحقير .. ! »

ولا بد ان صدىكلماتي طرق اذنيه ، فقد رأيته يرفع يديهليسدهما بهما ، وفي نفس الوقت قصر وضؤل عما كان .

وما كاد الشيخ يختفي عنبصري حتى اخذت افكر وقلت فـي نفسي « بل انت انت الاحمق يا سندباد .. ايدفعك الملل الى ان تدمر كل هذه الجنة التي منحها اياك الشيخ .. ؟ وماذا تخسر في مقابـل بضع كلمات ترددها شفتاك حتى ان لم يؤمن بها قلبك ؟ » وهممت يـا ساة يا كرام بان اسعى الى الشيخ مصالحا ، ولكن كان لتحديه لـذة لم استطع مقاومتها .. كانت لذة جديدة علي منذ عقدت معه صفقـة الثناء مقابل المنح ، ولم اجد من نفسي اقبالا على التخلي عنها والعودة الى مسالمته . ولم اخطىء يا سادة يا كرام في الاستسلام لهذه اللذة ، فقد اكتشفت ـ بعد ان فكرت قليلاـان الملل لم يتولد في نفسي عبثا ، انما كان الملل تنبها غريزيا لخطر رهيب ودفاعا عـن مصير مخيف لست ادري كيف كان غائبا عني حتى هذه اللحظة . ان الشيخ يكبر ويكبـر كلما غذيته بكلما تالثناء ، ويبدو مما ارى الان ان ليس هناك حد يمكن ان يتوقف عنده نموه ، وسوف يأتي لا محالة يوم يبلغ فيـه حجمـه حدا لا يسمح لي بالبقاء بجانبه .. انه يشغل كل يوم حيزا جـديدا من جنته ، وانا اخسر كل يوم حيزا في مقابل ما يمتد فيه جسمه . فاين اذهب في ذلك اليومـالمقبل لا محالة ـ الذي يشغل فيه جسمـه كل ارجاء الجنة ؟ انني لن اجد حينئذ حيزا يكفي لاتنفس فيه ، وبهذا انتهي الى هلاك محتوم . نعم يا سادة يا كرام .. لقد ادركت انالحياة لن تتسع لكلينا ، فاما هو واما انا .. الا حمدا للملل الذي نبهني الى هذا المصير قبل فوات الاوان.. !

وهكذا قررت يا سادة يا كرام ان اقضي على الشيخ قبـل ان يقضي علي ، وقضائي عليه لن يكلفني اكثر من كلمات القيها فيمسمعيه صباح مساء ، كلمات العنه بها ، كلمات تعبر بصدق عن رأيي فيه .نعم، لن ينجيني من الهلاك تحت وطأته سوى أن اصدق مع نفسي ..الكلمات الصادقة يا سادة يا كرام هي مجني ودرعي .

وادرك الشيخ ـ بما يملك من قدرة على اكتناه ما في الضمائر ـ ما استقر عليه رأيي ، فهب يدافع عن وجوده .

ومن ثم بدأت بيننا ـ انا السندباد ، وهو الساحر ـ معركةرهيبة تشيب لها الاجنة في البطون .

اما قصة هذه المعركة ، وكيف انتصرت فيها عليه ، فنظرة الـى سهرة تالية .

القاهرة

عبد الرحمن فهمي